

الفصل السابع

تلقيت في الأسبوع اللاحق خبراً أفضل من هدية العيد؛ إذ كنت جالساً في البيت أستمع إلى المذياع حين سمعت المذيع يقول: أعلنت لجنة الامتحانات الوطنية نتائج امتحان المعايير الثمانية. إذا أردتم معرفة نتيجتكم، فإن اللجنة تهيب بكم زيارة المكان الذي قدّمتم فيه الامتحان.

قلت لوالدتي: لقد ظهرت نتيجتي، ثمّ سرت نزولاً باتجاه مدرسة ويمبي الابتدائية، وكنت أقفز تجنباً من البرك والحفر التي ملأت الطريق، وشعرت بثقة كبيرة جعلت فكري يسرح ويحلّق عالياً. تُرى، بأيّ المدرستين الداخليتين سألتحق: تشاياмба أم كاسونغو؟ ولما كانت قرّرت أن أصبح عالمياً - ليس مجرد عالم -، إنّما عالم عظيم -، فقد عرفت أنّ تلكما المدرستين تضمان أفضل المدرّسين، إضافة إلى المكتبات والمختبرات وكلّ ما أحتاج إليه لأحقّق حلمي. لم يكن هنالك فرق بين الاثنتين بالنسبة إليّ؛ فأنا مستعد للالتحاق بأيّ منهما.

كانت اللائحة معلّقة على جدار خارج مبنى الإدارة. وكان هنالك بعض الطلاب الذين زاحمتهم لأصل إلى المقدّمة. تضمّنت اللائحة قوائم بأسماء مدارس عدّة، وأسماء طلاب كلّ منها مرتّبة. وسرعان ما وجدت اسم مدرسة كاسونغو وبحثت في الأسماء تحتها، ثمّ انتقلت إلى مدرسة تشاياмба، ونزلت بإصبعي وأنا أقرأ الأسماء: كالامبو، كاليمبو... ثمّ ماكالاني.

قرّرت أن أنتظر هنيهة؛ إذ لا بُدّ أنّ هنالك خطأ ما...

بحثت في القوائم مرّة أخرى، لكنني لم أجد اسمي فيها. وما هي إلا لحظات حتى قال صبي يقف خلفي: هذا أنت، كامكوامبا. كان اسمه مايكل، وهو أحد الطلاب المتفوقين، وأردف: ستذهب إلى كاتشوكولو.

لقد كان محقّقاً؛ إذ كان اسمي ضمن قائمة مدرسة كاتشوكولو المتوسطة التي تُعدّ الأسوأ في المنطقة كما يُعتدّ. كانت كاتشوكولو مدرسة مجتمعية (قروية). لذا، فهي لم تحظَ باهتمام الحكومة ودعمها عند توزيع التمويل. قلت متعجباً: كيف حدث ذلك؟

نُشرت علامات الامتحان على لوح آخر، حيث وجدت اسمي، وعرفت سبب ترشيحي لتلك المدرسة؛ إذ كانت علاماتي دون المأمول، وهي على النحو الآتي:

الرياضيات: جيد.

العلوم التمهيديّة: جيد.

اللغة الإنجليزيّة: جيد.

لغة التشيتشيوا: جيد جداً.

الدراسات الاجتماعيّة: مقبول.

انتابني حزن عميق، وتخيّلت نفسي أمشي طريقاً طويلاً للوصول إلى كاتشوكولو التي تبعد زهاء خمسة كيلومترات تقريباً. كانت المدرسة بجانب شركة تبغ كبيرة على طريق مليء عادة بالوحد والحشرات. كما كان هنالك سدّ كبير قريبها، حيث كنت أذهب مع غيلبرت وجيفري إلى هناك أحياناً لصيد السمك.

قال مايكل ضاحكاً: مُباركٌ عليك مدرسة السدّ، ستصبح صياد سمك ماهراً من دون

شكّ

رددت عليه كأنني أفكر بصوت مسموع: أستطيع الحصول على شهادة الامتحان التأهيلي، ثم الانتقال إلى مدرسة أفضل، ستراني قريباً في كاسونغو، سنرى مَنْ يضحك في الآخر.

فقال ساخراً: حظاً طيباً.

هذا ما كنت أنوي فعله، لقد حزمت أمري. سأثابر لأصبح أفضل طالب في تلك المدرسة القروية، ثم اجتاز الامتحان التأهيلي، مثيراً دهشة الجميع. سأجعلهم يجثون على ركبهم في مدرستي كاسونغو وتشاياмба راجين انضمامي إليهم. وعلى الرغم مما حدث، فقد كنت مستعداً للذهاب إلى هذه المدرسة؛ إذ اختيرت أيضاً لمتابعة دراسته هناك (كانت علاماته متدنية هو الآخر). وقد تخيلت كيف سنمشي معاً إلى المدرسة، الأمر الذي زادني حماساً. كان قد تبقى لدي أسبوعان لتحضير نفسي.

بدأ العام الجديد بأمطار يومية روت فسائل الذرة وحفزتها إلى النمو. كانت السيقان حينها قد اخضرت وأصبحت تطاول ساقى والدي. أتاحت لنا الأمطار أيضاً نقل أشغال التبغ من الدامبو إلى الحقول؛ لتنمو الفسائل قوية.

دبَّت الحياة في الغابات أيضاً بفضل الأمطار التي ساعدت على تفتح الأزهار والبراعم. كانت الأرض يانعة وخضراء أينما ذهبت، ورائحة الهواء لطيفة منعشة. لقد كان الأمر أشبه بمزحة؛ إذ لم يكن هنالك شيء موجود للأكل.

كان موسم المطر يُبذر بتكاثر الحشرات وتفقيس صغارها، فضلاً على الذباب الذي يحوم حول المراحيض، ويصعد من على الحفرة الامتصاصية، سميناً بلونه الأسود الضارب إلى الخضرة. أمّا في الخارج، فكان الذباب كثيراً لدرجة أنك لا تستطيع الخلاص منه؛ إذ كان يتجمّع على قدميك إذا كنت واقفاً من دون حراك، وعلى وجهك إذا كنت تحاول التحدث. لقد كان الناس يهشّون الذباب أينما ذهبوا.

كان هنالك أيضاً أسراب كثيرة من البعوض الذي يحمل الملاريا والموت بين طيّات أجنحته. أما الصراصير فكانت أكبر حجماً، وأكثر عدداً من المعتاد. وبعد هطل الأمطار الغزيرة في أثناء الليل، كان الوادي يضح بأصوات ملايين الضفادع: بعضها يزعق وينتفق،

بينما كان النداء بين آخرين يشبه صوت حَبَّات مطر ضخمة تهطل من الجنة: بلووب... بلووب... بلووب. لقد كان موسمُ المطر موسمَ الوحل والحشرات دون ريب؛ وهو موسم لا يشبع فيه سوى العناكب والأوزاع.

أمَّا البشر، فكان المطر لا يجلب لهم سوى مزيداً من البؤس ولؤلئك الذين يصارعون من أجل البقاء. ومع أنَّ أحداً لم يكن قادراً على دفع أجرة الواغانيو، فإن كثيرين استمروا في التجوُّل، حاملين حُزمهم ومعاولهم، غائصين في الوحل، غارقين بشياهم من المطر.

في تلك الأثناء، وصل سعر دلو الذرة إلى نحو ألف كواتشا، وأصبح عمَّال الواغانيو والآخرون كافة يعتمدون على تناول الغاغا. وما إن شحَّت كميات الغاغا حتى أخذ التجار يخلطونها بنشارة الخشب. كانت الحبيبات الصفراء تُوارى بطريقة ما في التبن البني، ولا يظهر أثرها إلى أن تؤذي العصيدة معد الناس. وحين كُشِف الأمر تجمَّع نفر من الناس حول التجار الذين كانوا ما يزالون يبيعون في السوق، ثم صرخوا، قائلين:

– لقد أنفقت مالي كله، وكلُّ ما حصلت عليه هو بطن مليء بنشارة الخشب!

– أبنائي في البيت يعانون المرض!

– تصرفكم ليس إنسانياً!

كانوا يعلمون أنه من حقِّهم التقدُّم بشكوى ضد هؤلاء التجار. ولكن، لم يكن بمقدورهم فعل شيء وجيوبهم خاوية.

كانت والدتي تقضي ساعات في البيت وهي تخبز الكعك، حيث تخلط العجين، وتضعه في وعاء معدني، ثم تدفنه في الفحم. كانت تُكرِّر هذا الأمر مرَّات عدَّة لتحصل في النهاية على مئة كعكة، تضعها في حوض كبير، ثم تغطِّيه بالقماش. بعد ذلك، كانت تملأ إبريقاً من الماء، وتأخذ بعض الأكواب؛ لكي يتمكن الجائعون من ملء معدهم بالماء بعد تناول الكعك. وعند عودتها إلى البيت مساءً، كنَّا نتناول الحوض من يديها متظاهرين بمساعدتها، في حين كنَّا في الواقع نلقي نظرة تحت القماش لنشاهد كمية الدقيق التي جنتها.

كان معظم زبائننا من الفلاحين الذين باعوا مقتنياتهم، أو أخذوا قروضاً من التجار أو رجال الأعمال الذين أصبحوا يفرضون فائدة نسبتها 300%. تلك كانت الشروط، وإذا لم يعجبك الأمر، فيمكنك عرض صحنوك وسقف بيتك عليهم. لذا، كان معظم الناس يأخذون القروض؛ إمّا لأنهم لم يكونوا يملكون شيئاً أصلاً، وإمّا لأن بيوتهم أصبحت خاوية على عروشها.

أصبح الوضع في المركز التجاري أكثر توتراً في ظلّ تلك الشروط؛ إذ بدأ الناس يتحلّقون حول التجار، من أمثال السيد مانغوتشي، لبحث شكاوهم. ولكن، نادراً ما كانت تلك الشكاوى تتطوّر إلى تهديدات؛ إذ لم يكن لدى الناس طاقة تعينهم على ذلك. وكثيراً ما كانوا يصرخون:

هذا طعامنا. لماذا تجوعوننا بفرض تلك الأسعار؟.

فيجيب السيد مانغوتشي، قائلاً: المزارعون في تنزانيا يتقاضون منا الضعف. وإذا بعث بسعر أقل فسينتهي أمري، ولن تجدوا شيئاً في الغد. وفي واقع الأمر، فقد كان محقاً فيما قاله.

وصلت والدتي إلى السوق كالمعتاد ظهيرة أحد الأيام، ثمّ نصبت طاولتها، وما هي إلاّ ثوانٍ حتى تجمّعت حولها حشود صارخة وممسكة بأغراضها.

صرخت إحدى النساء: سأخذ اثنتين!.

قال رجل: أعطيني ثلاثاً!.

وفي خضم تلك الفوضى والاندفاع، لم تلحظ والدتي أنّ بعض الأشخاص كانوا ينشلون الكعك من الحوض. أمّا آخرون، فبعد أن طلبوا ما يريدون، تناولوه وهربوا. حتى إنّ رجلاً جلس بجانب والدتي، قائلاً: أعطيني ثلاثاً، ثمّ تناول ثلاث كعكات من الحوض وأكلها بسرعة.

فقالت والدتي: هاتِ تسع كواتشات.

أجاب: لا مال لدي.

وحين عادت والدتي إلى البيت مساءً، كان شعرها منفوشاً، ووجهها مخطوفاً متعباً.

قلت وأنا أمسك الحوض لألقي نظرة: أمّاه، لا بُدَّ أنكَ مُنهكة. كان الحوض فارغاً تقريباً.

قالت: أخذوا كلَّ شيء تقريباً. لن يكون لدينا كثير الليلة.

كانت محقّة؛ فقد تناولنا عشاءً متواضعاً تلك الليلة.

ومع استمرار ارتفاع سعر الذرة، اضطر أبوأي إلى تقليص الكميات المشتراة. وقد أدى ذلك إلى تقليص كميات الكعك التي تبيعها والدتي؛ ما يعني تناقص كمية الطعام التي سنتناولها. وبذا، أصبحت كتلة السیما خاصتنا تتقلّص شيئاً فشيئاً (خمس لقم، فأربع).

وحينئذٍ، أخذت والدتي توجّهنا، قائلة: كلّموا وضعتم السیما في أفواهكم اشربوا الماء، وستخدعون معدكم بتلك الطريقة.

ومع أنّنا - معشر الأطفال - كنّا ملتزمين بحصصنا من الأكل، فإن شقيقتي روز، التي كانت حينها في سنّ السابعة، أخذت تتناول حفنة من السیما وتحشوها في فمها قبل أن يتمكن أحد من إيقافها.

فصرخت دوريس التي كانت في عامها الثاني، قائلة: «أنتِ! تروّي قليلاً. أمّاه، إنّها تأخذ قطعاً أكبر!».

ردّت روز بغضب: ربّما يجدر بك الأكل على نحوٍ أسرع.

وفي واقع الأمر، فقد كنّا جميعاً نزداد نحافة، خاصة روز وميليس، أصغر اثنتين مع تياميكي. فقد ورثتا - مع الأسف - بنية والدتي (صغر الحجم، والنحول). لذا، كان الجوع بادياً على جسديهما عامة، وعلى وجهيهما الغائرين على وجه الخصوص. كنت أنا وعائشة ودوريس فارعي الطول كوالدي. لذا، كانت بنيتنا أكثر امتلاءً، مع أنّي ابتكرت حينها حزاماً من قماش طويل لكيلا يسقط بنطالي. كان عليّ أن أصبح أكثر إبداعاً مع مرور الوقت.

لم ينهر والدي أو والدتي روز قطّ على أخذها كمية طعام تفوق حصتها. أمّا دوريس فسرعان ما طفح كيلها، وأُصيب بحالة من القلق والتوتر في الأسابيع المنصرمة؛ خوفاً من عدم حصولها على طعام في أثناء العشاء، أو تراخي والديّ في مدّ يد العون لها. لذا، أصبح وقت تناول الوجبات يشوبه الإجهاد والقلق. فذات ليلة، وعندما كنا جالسين حول طبق السيام، مدّت روز يدها وتناولت قطعة كبيرة كالعادة. ولكن قبل أن تضعها في فمها، قفزت دوريس من فوق الحوض، وأخذت تلطمها على وجهها.

صرخت روز: أمّاها!

«كفاً عن ذلك!»، صرخت والديّ بينما حاولت تفريقهما؛ وهي مهمة يبدو أنّها استنزفت ما تبقى من طاقتها. كلا، وحاولا أن تنسجما فحسب. أنا لا أقوى على التعامل معكما. خلدنا إلى النوم جياً تلك الليلة أيضاً، وكانت رائحة الطعام لا تزال عالقة بأصابعنا؛ رائحة لا يُمكن حتى للماء إزالتها.

لاذت الحكومة بالصمت على الرغم من نفاذ الطعام في شتّى أنحاء مالايو. وكنا نستمع إلى المذيع كلّ يوم لتعرّف أخبار المجاعة، لكنّها (الحكومة) كانت تتجاهل ذلك. ومع نفاذ المخزون من صوامع جمعية بريس الزراعية لدرجة أنّ عمّالها أنفسهم بدأوا يتوسّلون للحصول على الطعام، إلى جانب نفاذ مخزون إدمارك أيضاً؛ لم تُلح في الأفق بوادر على قرب وصول أيّ نوع من المساعدات. فبدأ الجوع يُؤلّد الريبة في النفوس، والريبة تُؤلّد الإشاعات.

ثمّ أخذ الناس يقولون:

— لقد باعوا كلّ غلّتنا ومحصولنا من الذرة! ماذا باعوا أيضاً؟

— لا شيء في مأمّن بمالايو.

— ما الذي يحاولون إخفاءه عنّا؟

لقد كانوا مقتنعين أنّ الحكومة ستنهَار. لذا، أسرع المزارعون إلى المصارف في كاسونغو لسحب ما تبقى من مدخراتهم القليلة. وفي صباح يوم مطير، ركب والدي شاحنة برفقة رجال آخرين مُتوجِّهًا صوب البلدة. ولمّا وصل وجد صفًّا طويلاً يمتد من باب المصرف حتى نهاية الشارع. انتظر نحو مئة رجل طوال النهار تحت وقع المطر ومعدهم خاوية إلا من الغضب والخوف. وحالما دخلوا، طلب إليهم الموظف المُنهمك أن ينتظروا وقتاً آخر، فهَدَّد المزارعون بإثارة أعمال شغب، قائلين: أعطونا مالنا حالاً! ما الذي تحاولون إخفاءه عنّا؟. ولحسن الطالع، فقد تمكّن والدي من سحب مدخرات العائلة كلّها (ألف كواتشا تقريباً)، ثمّ اشترى بها دلوّاً آخر من الذرة، ثمّ طحنه وباعه في اليوم اللاحق. وبذا، استطعنا توفير طعام لأسبوع آخر.

وعلى الرغم من كلّ ما كان يحدث، فقد كان اهتمامي منصباً على حدث مهم منتصف شهر كانون الثاني حين تبدأ الدراسة في مدرسة كاتشوكولو المتوسطة؛ حدث أُخطئ له منذ أسابيع عدّة، يتمثّل في كيفية توفير بنطال طويل، والمضي قدماً مع صديقي غيلبرت لشقّ طريقنا نحو المستقبل كالرجال. لقد جنّبتني التفكير في المدرسة التفكير في المشكلات المحيطة بنا. وكان الشعور بالجوع في أثناء وجودي في المدرسة أقلّ وطأة من الشعور به في البيت.

كانت مشكلتي الوحيدة هي الزي المدرسي. كان لديّ بنطال أسود، لكنّ والديّ لم يتمكّنوا من شراء قميص أبيض مناسب لي من المدير. وكان البديل أن أرسلتني والديّ إلى أكشاك الملابس المستعملة في السوق التجاري، قائلة: «ماذا يضيرك لو لم تعرف منشأه؟ المهم في الأمر كلّهُ هو أن يكون أبيض اللون».

كان لديّ قميصان أصلاً، وكنت قد ارتديت قميص الزي قبل بدء الدراسة؛ ما أدّى إلى اتساخه، ولم يكن بالإمكان غسله بالصابون؛ نظراً إلى نفاذ آخر قطعة منه. وكنا قد تدبّرنا أمر شراء قطعة من صابون مالوا القلوي الزهيد الثمن بداية الشهر، لكنّها استُخدمت كلّها، ولم يبقَ منها شيء. كان يمكننا غسل أجسادنا بالماء الدافئ وأعشاب البونغوي، لكنّ الأمر كان صعباً مع القميص الأبيض.

وذا صباح، أخرجت نصف عجلة جرّار كُنّا نستعملها لغسل الثياب، ثمّ ملأتها بالماء الساخن، ثمّ نعت القميص فيها إلى أن برد الماء. بعد ذلك، فركته بالبونغوي، لكنّ ذلك لم ينفع؛ إذ بقيت الدوائر المصفرة جاثمة حول منطقة الإبطين، كما بقيت الياقة رمادية. لم يكن بيدي حيلة.

في أول يوم من أيام الدراسة، قابلت غيلبرت في الطريق لكي نذهب معاً، وقد دار بيننا الحوار الآتي:

— غيلبرت، بو؟

— بو.

— أكيد؟

— أكيد.

— هذا هو اليوم المنتظر يا صديقي!

— بالطبع!

— مَنْ سيضربنا أولاً برأيك؟

— حسناً، كنت أفكر في خطة؛ إذا اقترب منّا أحد الفتية من الذين يكبرونا سنّاً، ولم تبدُ عليه علامات القوة، فسننتولّى أمره مباشرة.

— يا لها من خطة محكمة! سيثبت ذلك للجميع أنّنا قادرون على القتال.

— حتماً.

— مَنْ سيضربه أولاً؟

— أعتقد أنّ عليك فعل ذلك.

استغرقت رحلتنا إلى المدرسة أربعين دقيقة، صعدا في أثنائها تلالاً، وجزنا حقول الذرة ومستنقعات الدامبو حيث كُنّا نصطاد أحياناً. يُذكر أنّ المدرسة بُيّت في وادٍ محاط

بضيع التبغ، وقد شاهدت مراراً جرّارات ضخمة تعمل بالديزل وهي تحرث التربة، وكثير من الرجال المحظوظين بالعمل تحت لهيب أشعة الشمس.

وما إن وصلنا إلى المدرسة حتى تجمّعنا في الساحة المحاطة بأشجار اليوكالبتوس؛ استعداداً لأول طابور مدرسي، ثمّ شاهدنا المدير؛ السيد دبليو. إم. بهيري (لا تربطه صلة قرابة بالمحارب السحري الأسطورة)، الذي عبّر عن سعادته لرؤية وجوه جديدة مشرقة واعدة، بقوله: إن مدرسة كاتشوكولو حريصة على تعليمكم شتى صنوف المعرفة التي ستعين بلدكم، وتجعله فخوراً بكم.

كنّا حقاً مجموعة جيدة، تتطلّع إلى التعلّم، ويسري في أوصالها حبّ المعرفة، والرغبة في البحث والاستكشاف. وقد تأكّدت حينئذٍ أنني أمرّ بأفضل أيام حياتي. لذا، لم أستطع أن أكف نفسي عن الابتسام.

أكمل المدير قائلاً: لكنّ حالنا حال أيّ مؤسسة تعليمية؛ فإنّ لهذه المدرسة قوانين يجب اتباعها. يجب على كلّ طالب ارتداء الزي المناسب، وتحريّ الدقة في المواعيد؛ وإلا كانت العقوبة فورية.

حين انتهى الطابور، مشيت صوب الصف برفقة غيلبرت، فرّبت السيد بهيري على كتفي، قائلاً: ما اسمك؟

أجبت وعلامات التوتر بادية على مُحيّاي: ويليام ترايويل كامكوامبا،

قال: حسناً يا ويليام، هذا ليس زياً مدرسياً مناسباً.

لا بُدَّ أنّه لاحظ إبطي. وددت لو هربت واختبأت. ثمّ نظر السيد بهيري إلى قدمي، قائلاً: يُمنع ارتداء النعال. يجب أن يرتدي طلابنا أحذية مناسبة دائماً. لذا، يتعيّن عليك العودة إلى البيت وتغييره.

نظرت إلى حُفّتي اللذّين كانا في حالة يُرثى لها. كان الشريط المطاطي الذي يثبّت النعل مقطوعاً في إحدى الفرديتين، ما اضطرني إلى حمل إبرة كروشيّه كبيرة وخيط في جيبتي احتياطاً. لم يكن لديّ حذاء في البيت، لذا كان عليّ التفكير بسرعة.

قلت: سيدي المدير، يمكنني ارتداء حذاء مناسب. ولكن، لأنني أسكن في ويمبي، فإنه يتعين عليّ قطع جدولين يومياً للوصول إلى هنا. ولما كنا في موسم المطر، فتخيّل كيف سيدمّر الوحل حذائي الجلدي. لن تقبل والدتي بالأمر.

قطب المدير حاجبيه، مُفكراً فيما قلت، ودعوت الله أن تتجح الخطة.

قال: حسناً، سأسمح بذلك مؤقتاً. ولكن، حالما ينتهي موسم المطر، أريد أن أراك ترتدي حذاءً مناسباً.

لم يكن والدي يملك ثمن الكتب أيضاً؛ إذ كان ثمن الكتاب الواحد بضع مئات من الكواتشا. حتى في أوقات الرخاء، لم يكن معظم الطلاب يملكون ثمن تلك الكتب، وكانوا مضطرين إلى مشاركتها. كان الأمر في المدرسة الابتدائية يحتم عليك حشر نفسك في المقعد نفسه مع الطلاب الآخرين، الذين قد لا يقرؤون على نحوٍ أسرع منك. ولكن، من حسن طالعي أنّ غيلبرت تمكّن من شراء الكتب كلها، وسمح لي باستخدامها معه، وهو أمر جيد؛ لأنّ كلينا يقرأ بالسرعة نفسها.

كانت الأوضاع في مدرسة ويمبي الابتدائية مروّعة؛ إذ اضطر الطلاب إلى الدراسة تحت الأشجار خارج الغرف الصفية التي كانت ممتلئة على بكرة أييها. وحتى داخل هذه الغرف، كانت السقوف تدلف كلّما نزل المطر. وكان صف المعايير الثلاثة يفتقد لجدار كامل، ولم تكن المراحيض قذرة فحسب، بل كانت خطيرة أيضاً. وكان النمل الأبيض يأكل بنهم الأرضية المصنوعة من ألواح خشبية؛ ما أدّى إلى سقوط الأرضية بإحدى زميلاتي (تُدعى آنجيلا) في ظهيرة أحد الأيام. وقد مرّت ساعات عدّة قبل أن يتمكّن أحد من سماع صرخاتها القادمة من القاع اللزج. وبعد هذه الحادثة، امتنعت آنجيلا عن الذهاب إلى المدرسة.

كنت أمل أن تكون الظروف أفضل في المدرسة المتوسطة، لكنّ أملي خاب. فما إن وصلت أنا وغيلبرت إلى صفنا في مدرسة كاتشوكولو، حتى طلب مدرّسنا الجديد السيد تيمبو من الجميع الجلوس على الأرض. يبدو أنّ الحكومة لم ترسل أيّ أموال لشراء المقاعد،

كما يشير مظهر المقاعد العام إلى أنها لم ترسل المال اللازم لغايات الترميم. وكانت هنالك حفرة كبيرة في الأرضية، كأنَّ قنبلة انفجرت في المكان.

بدأنا بدراسة التاريخ من فورنا، وكانت موضوعاته تتضمن الحضارات القديمة في الصين ومصر وبلاد الرافدين، والتاريخ المدوّن، والتاريخ الشفهي، وأول أشكال الكتابة. أيضاً، أخذنا ندرس الجبر في حصة الرياضيات؛ وهو أمر كان صعباً بالنسبة إليّ. ثمَّ عزّجنا على علم الهندسة قليلاً؛ وهو علم أحببته ولا شك. وقد تعلّمنا في الهندسة عن الزوايا والدرجات، فتذكّرت أنّ البنّائين في السوق التجاري يستخدمون مصطلحات مثل هذه.

وفي يوم لاحق، وفي أثناء درس الجغرافيا، أخرج السيد تيمبو خارطة العالم، ثمَّ حدّدنا موقع قارة إفريقيا عليها. بعد ذلك طرح السؤال الآتي: أيكم يستطيع إيجاد مالايوي؟

أجاب أحد الطلاب: نعم، ها هي ذا.

وضعنا أصابعنا على خارطة بلدنا، ودهشت من مدى صغر حجمها مقارنة ببقية الكوكب. ثمَّ أخذت أفكّر في كيفية اتساع ذلك المكان الصغير لأحداث حياتي بمختلف تفاصيلها. إنّ الناظر إليها على الخارطة (تضاريس مظلمة باللون الأخضر، وطرق ملتوية باللون البني، وبحيرة ممتدة كجوهرة متألّثة) لن يخطر على باله أنّ أحد عشر مليون نسمة يعيشون هناك، وأنَّ جُلّهم يعاني المجاعة والموت شيئاً فشيئاً.

كانت توقعاتي السابقة بالنسبة إلى الجوع في غير محلّها؛ إذ كان الجوع في الصف مؤلماً كحالته في الحقول. وكان الوضع أسوأ ممّا اعتقدت. فقد كنت أجلس بالصف ومعدتي تهدّد وتزعق وتتلوّى، الأمر الذي شوّش تفكيري. وسرعان ما صرت أواجه صعوبة في الانتباه والتركيز. كان الحماس حاضراً بقوة بين زملائي في أسبوع الدراسة الأول، ولكن بعد مرور أسبوعين فقط، كان الجوع قد أثر علينا جميعاً. فبدأت تدريجيّاً يخيّم على المدرسة كلها. كنت ترى في بداية الفصل كثيراً من الأيدي المرفوعة كلّما سأل السيد تيمبو: حسناً، هل عندكم أيّ أسئلة؟ أمّا الآن فلا يوجد أيّ من المتطوعين. وأصبح ما يشغل بال معظم الطلاب هو العودة إلى البيت والبحث عن الطعام. وقد لاحظت كيف أصبحت الوجوه أكثر نحافة، وكيف اختفى بعضها مع مرور الوقت. ولما كانت أنّ البيوت خالية من أيّ مرطّب أو

صابون، فقد أصبح جلد الناس رمادياً جافاً، كأنّهم مغطون بالرماد. وغاب الحديث عن كرة القدم في أثناء الفسحة ليحلّ محله قصص عن الجوع.

قال أحد الأولاد: رأيت البارحة أناساً يأكلون سيقان الذرة مع أنّها لم تنضج بعد. أنا متأكد من إصابتهم بالمرض.

قال آخر: أراكم على خير يارفاق. لن آتي إلى المدرسة غداً. لا أعتقد أن بإمكانني السير بعد الآن.

لم يكن أيّ من ذلك مهماً؛ ففي الأول من شباط، أعلن السيد دليو. إم. بهيري خبراً في أثناء الطابور الصباحي، حيث قال: نعي جميعاً الأحوال التي تمرّ بها البلاد بأسرها، وكذا التحديات التي تواجهنا نحن أيضاً. لكنّ أغلبكم لم يدفع بعد الرسوم المدرسية لهذا الفصل. ستنتهي مدة السماح غداً.

عقدت معدتي نفسها مرّة أخرى لمعرفتي أنّ والدي لم يدفع الرسوم بعد. كنت قد آيبت الطلب منه ذلك في الأسابيع التي خلت لمعرفتي مسبقاً بجوابه. كانت الرسوم ألفاً ومئتي كواتشا، تُدفع على ثلاث دفعات في العام. أخذت ألوم نفسي – في أثناء عودتي إلى البيت – على تفاؤلي وتحمّسي الزائدين، وأسأل عن سبب موافقة والدي على إرسالني إلى المدرسة أصلاً.

سألت غيلبرت: ماذا سأفعل؟ أعتقد أنّني سأذهب إلى البيت لأسمع نفس الديباجة نفسها.

قال: لا تقلق كثيراً، انتظر لنعرف ما سيحدث.

حين عدت إلى البيت، وجدت والدي في الحقل، فذهبت إليه، وأخبرته بما حدث، قائلاً: «طلب إليّ مدير المدرسة أن أجلب الرسوم غداً؛ ألفاً ومئتي كواتشا. أظن أنّه يتعيّن علينا الدفع، السيد بهيري لا يقبل المزاح في مثل هذه الأمور».

نظر والدي إلى التراب بالطريقة نفسها التي نظر بها إلى أكياس الحبوب في المخزن سابقاً؛ وكأنه ينتظر منها أن تُخبره شيئاً، ثمَّ نظر إليَّ نظرتَه المرعبة، قائلاً: تعرف الأحوال التي نمرُّ بها يا بني، نحن لا نملك شروى نغير.

كنت أراقب حركة شفثيه. ولكن، ما كان يدور في رأسي هو صوت السيد بهيري يُكرِّر ما قاله في أثناء خروجنا من المدرسة: لا رسوم، لا دراسة.

قال والدي: أنا آسف، سيكون الوضع أفضل العام المقبل، لا تقلق يا بني.

لاحظت أمارات الحزن والاستياء والوجوم بادية على مُحَيَّا والدي، لكنني كنت واثقاً أنّ شعوره هذا لا يقارن بشعور الحزن العميق الذي يُخالج أعماقي. وفي صباح اليوم الآتي، ومن باب تعذيب نفسي فحسب، استيقظت في التوقيت المعتاد، ووقفت عند مفترق الطرق منتظراً غيلبرت. حتى إنَّني ارتديت بنطالي الأسود وقميصي الأبيض. لا أعرف لماذا فعلت ذلك؛ فأنا لم أكن ذاهباً إلى أيِّ مكان.

وسرعان ما حضر غيلبرت، قائلاً: هيا يا ويليام، أئن تذهب إلى المدرسة؟

وددت لو بكيت، لكنني تماكنت نفسي، قائلاً: سأترك المدرسة، لم يتمكن والداي من تدبّر أمر الرسوم.

إنَّه أمر مؤسف، قالها غيلبرت والحزن بادٍ عليه، الأمر الذي خفَّف عني قليلاً. ثمَّ أضاف قائلاً: ربَّما سيتمكَّن من توفير المال اللازم.

قلت: ربَّما. أراك لاحقاً يا غيلبرت.

توجَّهت صوب بيت جيفري ونفسي تقطر حسرةً وألماً، علَّني أشاطره همِّي. كان الحظ قد حالف جيفري قبل ذلك بأسبوع؛ ففي أثناء عاصفة هوجاء هبَّت ليلاً، ضربت صاعقة شجرة يوكالبيتوس عملاقة خلف منزلهم، ما أدى إلى سقوطها. وفي اليوم اللاحق، خرج جيفري وقطَّع الشجرة ببلطته، ثمَّ جاب الطرق يبيع حُزماً من الحطب لقاء ثلاثين كواتشا للواحدة، الأمر الذي وفَّر لعائلته طعاماً يكفيها أسبوعين. وبين انشغالي بالمدرسة وانشغاله بالحطب، لم يشاهد بعضنا بعضاً مدَّة أسبوعين. لذا، كنت مشتاقاً لمعرفة أخباره.

كان جيفري يرتدي ثيابه عندما دخلت، وقد تسمّرت في مكاني حين رأيته؛ إذ كانت ثيابه تبدو مستعارة كأنّها لشخص آخر، وكانت عيناه غائرتين معتمتين، وكان بياض عينيه شديداً كأنّهما عينا شبح. كان ابن عمي فتىً ضخماً فيما مضى، لكنّه الآن يُشارف على الهلاك. لقد حدث هذا الأمر بسرعة كبيرة.

سألني: لماذا لم تذهب إلى المدرسة؟ ألم تُقبَل في مدرسة كاتوكولو؟

قلت: لا يوجد مال. لقد تركتها اليوم.

قال: أنا حزين لسماع ذلك. كلانا يمرّ بظروف لا يُحسد عليها.

قلت: صدقت.

نظر إلى الأرض، ثمّ همّز رأسه، قائلاً: لعلّ القدر يخبئ لنا شيئاً حسناً.

وعلى الرغم ما شاهدته من الحال التي وصل إليها جيفري، فقد بقيت غارقاً في أحزاني وأشعر بالأسى تجاه نفسي، ثمّ أخذت أفكّر وأسأل نفسي: لماذا أنا تحديداً؟ كأنّني الوحيد الذي يلازمه سوء الطالع. بعد انتهاء الدراسة ظهيرة ذلك اليوم، مررت مرّة أخرى بغيلبرت الذي نقل لي نبأً جديداً: كنّا قلة اليوم. لقد ترك معظم الطلاب المدرسة أيضاً؛ إذ بقي عشرون طالباً من أصل سبعين.

لم تبيد مشكلاتي ذات أهمية عندئذٍ؛ فقد كان الجوع يلفّ البلاد كلها. لذا، قرّرت الوثوق بكلام والدي الذي قال: إننا سنكون على ما يرام إذا تجاوزنا مرحلة الجوع هذه. وكما قال جيفري: علينا تجاوز الجوع أولاً؛ فالتفكير في الغد صعب في حدّ ذاته.

نصدت الغاغا في أواخر شهر كانون الثاني، فتحوّل الناس الذين كانوا يقتاتون بها إلى تناول أوراق اليقطين، وهنا بدأ الجوع الحقيقي. لقد وصلت المجاعة إلى مالوي، وحلّ البلاء بالجميع، مثل الوباء الكبير الذي أحاق بمصر كما تعلّمنا في المدرسة، بسرعة ومن دون توقّف. وقد حُيّل للرأي أنّ أجسام الناس قد أصابها الشحوب والهزال الشديدين بين ليلة وضحاها. وها هم ذا ينتشرون بالآلاف عبر المنطقة، باحثين عن الطعام في التراب

كالحيوانات. زِدَّ على هذا أن بعضهم يفارقون الحياة واحداً تلو الآخر، بعيداً عن عائلاتهم وبيوتهم.

وقد غدا الناس الذين كانوا يحملون مقتنياتهم إلى السوق التجاري يوماً ما، يمرّون بالطريق نفسه وكأنّ على رؤوسهم الطير، وأعينهم تنور في محاجرها. لقد دَمَّرَ الجوع أجسادهم وأصابهم بداءين خطيرين؛ إذ ذوى بعضهم حتى أصبحوا هياكل عظمية تمشي على الأرض. رقابهم طويلة نحيلة كطيور الدوكوي التي تشرب الماء من النهر القريب، ورؤوسهم منحنية نحو الأسفل لا يقوون على رفعها في حين أُصِيب آخرون بالكواشيوكور، وهي حالة مروّعة تصيب الجسم حين يختفي البروتين من الدم. وعلى الرغم من أنّ أولئك الناس كانوا يتضوّرون جوعاً، فإن بطونهم وأرجلهم ووجوههم كانت منتفخة بفعل السوائل، مثل قرادة مليئة بالدم.

لم يقل هؤلاء الجوعى كثيراً في أثناء مرورهم، كأنّهم أموات حقّاً. فقد كانوا يبحثون عن شيء يملأون به معدهم. كانوا يتقلّبون على جانبي الطريق وعبر الحقول بانتباه، ملتقطين قشور الموز والعرائيس المرمية، ثمّ يدسّونها في أفواههم. كان هناك أيضاً بعض الرجال قرب منزلي يحفرون جذور التشيكهاوو الموجودة في أشجار الموز لكي يسلقوها على طريقة الكاسافا، وبمحاذاتهم بعض آخر يحفرون للحصول على جذور ودرنات لأنواع أُخرى، حتى إنّهم قطعوا العشب عن جانبي الطريق وطحنوه حتى استحال دقيقاً. وقد لجأ آخرون إلى تناول الحبوب التي وزّعها الحكومة على هيئة طرود إعانة، فكانوا يفركون عنها المبيد الحشري (بلونيه: الوردى والأخضر) المخصّص لمكافحة السوس. لكن، ومع تعذُّر إزالة السمّ كلّه، فقد أُصِيب كثيرون بالقيء والإسهال، الأمر الذي زاد من وهنهم. إضافة إلى أنّهم لم يجدوا شيئاً يزرعونهُ بعد أكلهم البذور.

كان الجائعون يتوقّفون ببيتنا، ويتوسّلون والدي من أجل الحصول على مساعدة. كنت أراهم آتين من بعيد، فأقول لنفسى: يا للهول! هذا الرجل يبدو سميناً، مُعتقداً أنّي رأيت - أخيراً - شخصاً يتمتع بصحة جيدة. ولكن حالما يصل، أدرك أنّه منتفخ البطن فحسب.

أنا أثيراء، مع أنها كانت مثبتة بالحجارة فقط. كما كان بعضهم يمشي مسافة عشرين أو ثلاثين ميلاً كل يوم.

كانت أقدامهم منتفخة لدرجة يستحيل معها لبس النعال، ثم يفاجئونك قائلين:

أرجوك، إذا كان لديك قطعة بسكوت فقط، فأنا مستعد للعمل لقائتها. لقد مررنا علينا ستة أيام من دون أن نأكل شيئاً. أعطنا طبقاً صغيراً من السيما فقط.

كان والدي يُردّد عليهم قائلاً: أنا لا أملك شيئاً، وكل ما أستطيع توفيره لعائلتي هو ووكمان فقط.

فيقولون: أعطنا عصيدة فقط.

فيردّ: قلت لكم: لا.

قضى بعض الرجال الليلة في باحة بيتنا. كانت الأرض والحطب رطبين ما جعل إشعال النار أمراً مستحيلاً. وحين هطل المطر في أثناء الليل، اختبأ الرجال تحت الرواق وهم يرتجفون من شدة البرد. وما إن حلّ الصباح حتى كان آخرهم قد أطلق ساقيه للريح.

بعد ليال عدّة، كنا جالسين في الباحة نتناول وجبتنا حين قدّم رجل من عابري الطريق. كان مغطى بالوحد ونحيفاً لدرجة يصعب معها فهم كيفية بقائه حياً حتى هذه اللحظة. كانت أسنانه بارزة من فمه، وشعره متساقط. جلس ببساطة إلى جانبنا من دون أن يلقي التحية. وقد صُعِقْتُ حين رأيته يدسّ يده القذرة في كتلة السيما، ويُخرج قطعة كبيرة منها. لقد صُدِمْنَا جميعاً، ولم نقل شيئاً، في حين أغمض عينيّ وأخذ يمضغ الطعام بلذّة، ثم بلعه ببطء ورضى. وبعد أن أصبح الطعام آمناً في معدته، التفت إلى والدي، قائلاً: أمن مزيد؟

قال والدي: لا.

فقال: حسناً، ثم نهض ومضى في حال سبيله.

استمر توافد الحشود من الغابات، وبدأ المركز التجاري يغمّس بهم أكثر من أي وقت مضى، مثل قطعان الحيوانات المجنونة، والجذباء تجرّها النار معاً. وجلست بعض النسوة

جانباً، وقد بدا عليهم الهزال والضعف، ومالت وجوههم إلى السواد، ثم أخذن يتضرعن لله تعالى. لكنهن فعّلتن ذلك بهدوء، ومن دون أن يذرفن الدموع. كان الأسى صامتاً في الأنحاء كلها؛ لأنّ أحداً لم يكن يقوى على البكاء. وفي ركن آخر من المركز التجاري، تجمّع أطفال ببطون منتفخة وشعر غير مألوف تغلب عليه الحمرة حول واجهات المحال؛ إذ ما يزال عدد من التجار يفرش القماش في الوحل لبيع الحبوب، لكن الكميات كانت تقلّ شيئاً فشيئاً. وكان الحصول على ثمنها يماثل الحصول على الذهب، أو شراء الكون والنجوم. كان الناس يتجمعون هناك، فقط ليحدّثوا بصمت؛ كأنهم يشاهدون حلماً في الجنة. أمّا أولئك الذين كانت لديهم بقية من قوّة، فأخذوا بالصراخ والتوسّل.

كان بعضهم يقول: بوانا، أعطني طبقاً صغيراً من الدقيق، ذلك كلّ ما يلزمني. أريده لطفلي.

«إن أعطيتك فسأبدأ...» قالها التجار، ولم يزيدوا.

بقي أولئك الذين لديهم بقية قوّة على مقربة، يتصارعون كالكلاب كلّما سقطت نواة على الأرض؛ ينظفون الحصى عنها، ثم يضعونها في أفواههم. وفي هذه الأثناء، مشى رجل بين الجموع مترنحاً وهو يئتم قائلًا: ساعدوني أرجوكم، أنا يتيم. لقد مات والدي. كان هذا الرجل في الأربعين من عمره.

كان كلّ منهم يروي قصة مختلفة، لكنّ الموت كان مشتركاً بينها.

قال أحد المزارعين: سمعت عن رجل قضى أياماً يبحث عن طعام، ثم قرّر أن يغفو تحت شجرة ذا صباح، فلم يصح قطّ.

قال آخر: كنت أظهو ووكمان، فإذا بشخص يجلس قبائتي، قائلًا: أحتاج إلى أكل هذا. ولكن قبل أن تجهز السيمة، كان الرجل قد فارق الحياة.

كان هنالك آخرون ممّن بقوا من دون طعام أياماً عدّة، لدرجة أنّ أجسادهم أصيبت بصدمة مميتة عند تناول أول وجبة. كما مرّت امرأة من فوق رجلين ميتين على قارعة الطريق، وكانا لا يزالان يمساكاً بمعوليهما. وقد حاول رجال انتفخت أجسادهم بسبب داء

كواشيوركور، التخلّص من معاناتهم بتصريف السائل من تقرّحاتهم الكبيرة بسكين، لكنّهم ماتوا بعد أيام من العدوى.

ثمّ وردت أخبار عن مجنون القرية بيني بيني، الذي كان يُضحكننا في أوقات الرخاء؛ إذ كان يتوجّه صوب التجار في المركز التجاري بعينين تهديان ليسرق الكعك والفانتا من أكشاكهم. لم يكن أحد يجرؤ على استرجاعها منه؛ لأنّ يديه كانتا متسختين على الدوام. يُذكر أنّ المجانين كانوا يعتمدون على الناس في أمور الرعاية والغذاء. ولكن، لم يعد أحد يهتم بهم الآن. وها هو ذا بيني بيني يموت داخل الكنيسة.

في خضم تلك الحالة من المعاناة والارتباك، أفادت الإذاعة الحكومية أنّ الرئيس سافر إلى لندن في زيارة عمل. ولدى عودته، سأله مُراسل الإذاعة بخصوص المجاعة، فتحلّقنا في البيت حول المذياع لننصت إلى ما سيقوله الرئيس.

قال المُراسل شيئاً من قبيل: سيادة الرئيس، هنالك كثير من الناس يموتون في شتّى أنحاء البلاد نتيجة نقص الغذاء. ما خطتكم لمواجهة هذا الوضع؟

سخر الرئيس من ذلك، قائلاً: إنّه ترعرع في قرية يموت الناس فيها لأسباب أُخرى غير نقص الغذاء، من مثل: السلّ، والكوليرا، والملاريا، والإسهال. ثمّ أضاف: لم يمّت أحد من جراء الجوع.

وحين أنهى المُراسل المقابلة، هزّ والدي رأسه، ثمّ أشاح بوجهه.

سألت: «كيف له أن يقول ذلك يا أبت؟».

أجاب والدي: «بعض الرجال يولدون وهم فاقدو البصر. لكنّ هذا يأبى أن يرى».

في ظهيرة ذلك اليوم، تعرّفت فجأة الطريقة التي يُدار بها العالم. فعندها كنت دائم التفكير في مسألة تجاهل دول العالم لمشكلتي الجوع والمرض اللتين تضربان عدداً لا بأس به من دول المنطقة، أيقنت أخيراً أنّه يتعيّن على الجميع الاعتماد على نفسه. لذا، كان لزاماً علينا الاعتماد على أنفسنا أيضاً.

